الوطنية عاطفة وصفة

بقلم الأستاذ سيد قطب

هذا الإحساس الغامض الذى يربط الفرد بالوطن ، ويثير فى دمه النخوة لرقعة خاصة من هذه الدنيا العريضة ويشعره بالارتباط القوى بينهما فى المصير ، ويدعوه الى الذود عن حدود هذه الرقعة وكل ما يتصل بها من المعانى والمخلفات .

هذا الاحساس الذى نسميه "الوطنية" لا ينشأ اعتباطا بل يقوم على أسباب محسوسة وإن كان الفرد فى النهاية لا يتنبه لهذه الأسباب ، بل يخيل اليه أنه يحب وطنه هكذا والسلام !

فالألفة الخاصة للمناظر والأشياء ، والدم الموروث ، والتقاليد العامة ، واللغة المشتركة ، والذكريات والحوادث والاستجابات النفسية مع الطبيعة ومع المجتمع . . كل أولئك يشترك اشتراكا وثيقا فى تكوين هذا الاحساس .

ومن خير ما قرأت مما يصور هذا المعنى تصويرا مجسما قول نجاشى الحبشة وقد عاد إلى وطنه بعد خمسة أعوام " إننى الآن أشم رائحة الأشجار وهى راعية أعرفها جيدا ، وكنت شديد الشوق إليها منذ أن فارقتها "

فهذا القول البسيط الساذج هو أبلغ ما قرأت فى تصوير معنى الوطنية . والنجاشى فى هذا التعبير أشعر من ابن الرومى إذ يقول :

بلد صحبت به الطفولة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد

فإذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

ومن هذا الوادى فى الإحساس الطبيعى بمعنى الوطن ما قرأته عن الكولنيل صادق بك التركى الذى كان مبعدا عن وطنه لخلافه مع مصطفى كمال ، فلما عاد أخيرا جثا على ركبتيه عند ما لامس أرض الوطن وقبل ترابه فى لهفة وتأثر شديدين ثم فاضت روحه لشدة تأثره .

ومنذ أسابيع أقامت الجالية اليونانية حفلة فى دار البطريركة الارثوذكسية حيث أودعت الهيكل قبضة من تراب الوطن الحر ، قبسها بعض المهاجرين على أثر الغزو الألمانى ، أرادوا الاحتفاظ بها طاهرة لم تلوثها أقدام الفاتحين !

* * *

إلا إن جميع المظاهر الروحية لعاطفة "الوطنية" لا يجوز أن تخدعنا عن الحقيقة الواقعة وهى أن الشعور الطيب نحو بقعة من الأرض ، هو ثمرة استجابة طيبة من الفرد لهذه البقعة

وهذه الاستجابة وليدة خير ناله هــذا الفرد من الوطن ، أو رجاء فى الخير على أقل تقدير . وبعبارة أخرى مكشوفة : إن المنفعة شريك قوى فى تكوين العاطفة الوطنية فى النفوس وإن الشاعر الذى يقول :

بلادى وإن جارت علىّ عزيزة وأهلى وإن ضنّوا علىّ كرام

إنمـا ينساق أنى أبعد مما تطيقه الطبيعة البشرية ، فذلك الجور عند ما يدوم ، وهذا الضن حينما يستمر خليقان أن يقضيا على هذا الإعزاز ، وأن يولدا فى النفس الشعور بالنقمة أو يطفئا شعلة الوطنية ويغضا من قيمتها فى نفس الفرد على أقل تقدير !

فينبغى ألا نكون خياليين فى فهم عاطفة الوطنية ، وإذا كنا لانحب لهذه العاطفة الكريمة أن تهبط إلى مرتبة "النفعية" وحدها ، فنحن لانحب أيضا أن نشتط فى الخيال بحيث نحسبها معنى مجردا لا يتعلق بالملابسات المـادية ، لأن الفهم الأخير يوقعنا فى أخطاء اجتماعية ووطنية ، لهـا عواقبها حين تقع الأزمات ويطلب من كل فرد أن يهب لدفعها عن الوطن فى الحرب أو فى السلم على سواء ، باسم الوطنية .

وإنه لمن الغلو أن نطلب إلى الفرد التضحية بكل شىء فى سبيل وطن لا يؤدى لهذا الفرد شيئا من الخير ، أو على العكس يؤذيه ويطارده بالحرمان والشقاء ، لأن هــذه التربة لاتصلح لنمـاء بذور الوطنية فى النفس البشرية ، بل هى تقتل هذه البذور فى مهدها وتغرس بدلهـا الحقد على هذا الوطن والاستهانة بمصالحه ، كما تنمى روح الفردية البغيضة والتفكك الاجتماعى بين المتمتعين والمحرومين ! .

لا بد أن يرعى الوطن مصلحة الفرد ، وأن يشعره بالرعاية والعطف والإعزاز ، حتى يبادله الفرد هذا الشعور ، وكلما أحس المواطن أن له فى الرخاء العام نصيبا ، وأن مصيره فى الخير والشر مرتبط بمصير هــذه الحدود الجغرافية ازداد تعلقا بوطنه ، وتقديرا للمصلحة الاجتماعية ، وغدا عضوا نافعا فى المجتمع ، شديد الاحتفاظ بتقاليده ، حريصا على تأدية حقوقه ، والعكس بالعكس سواء .

ونحن نعجب بوطنية الانجليز — ولا سيما فى نضالهم الأخير — فقد وجد الطابور الخامس مرتعا خصيبا فى كل تربة إلا فى التربة الانجليزية ، وقد دب الوهن إلى كل عزيمة إلا عزيمة الانجليز ، وإننا لنطالع أنباء صمود هذا الشعب للعاصفة كما نطالع أخبار المعجزات الخـارقة ونعجب أشد العجب لهذه الطبيعة الغريبة .

ولكن عجبنا خليق بأن يزول إذا عرفنا كيف يفهم الانجليز الوطنية ، وكيف يطبقونها فى حياتهم الخاصة والعامة ، وكيف يغدو كل انجليزى إلى وجهه وهو مطمئن إلى أن الوطن يقدر أداءه لهذا الواجب ، ويؤدى له حقه كاملا ، ويعنى به عناية خاصة ، كما يعنى بأهله وأطفاله لو أصابه مكروه .

" ومن دأب الانجليز عامة أنهم يذكرون التضحية ولا ينسون الجزاء فى حينه ، لأن الفرد عندهم مقدس الحقوق والمصالح والحريات ، وليس بالشيء الضائع فى الغمار ، فإذا خدم الأمة بما يستطيع فعلى الأمة كذلك أن تخدمه بما تستطيع ، وإذا نسى نفسه فإن الخطر وجب على الأمة ألا تنساه . وهذا هو لباب حركة العمال فى الحرب الحاضرة .

" أو كما قال بعضهم : إن التضحية مفروضة على أبناء الوطن أجمعين ، ولكن من الظلم أن تفرض على أقل الناس احتمالا لها ، ويعفى منها القادرون على احتمالها . فهذا الظلم هو الذى تمحوه العناية بحقوق الأيدى العاملة فى حرب يراد بها أن ترد الحقوق إلى أصحابها[1] ".

ولعل هذا يفسر لنا كيف يمضى العمال وغير العمال إلى أداء واجبهم تحت وابل القنابل المنهمر وفى أتون النار المشتعل ، وفى غمار الموت المحقق ، دون ما جلبة ولا ذعر ولا ارتباك ذلك أن الوطن من خلفهم يعرف لهم تضحياتهم ويجزيهم عنها خير الجزاء .

كما أن من مكونات الوطنية فى النفوس ، والاهتمام بالمجتمع ، ومحاولة النهوض به ، شعور الفرد بأن الوطن والمجتمع يهيئان له كالآخرين فرص النجاح والتقدم فى الحياة . ولا يقفان به عند مرحلة معينة لا يتعداها ، فالتسوية بين الجميع فى الفرص تشعره بأنه خليق أن يرقى إلى أعظم المناصب ، فهو خليق إذن أن يعنى بهذا الوطن وبهذا المجتمع ، الذى هو عضو ملحوظ فيه ، والذى قد يدعى للاشتراك فى تصريف شؤونه يوما من الأيام .

وأظهر ما يبدو هذا فى الولايات المتحدة ، حيث يحس كل فرد أنه مهيأ لأن يكون رئيس الجمهورية أو عضوا فى الهيئة الحكومية أو بارزا فى عمل من الأعمال ، ولهذا ترى الكبرياء الشخصية والكرامة الفردية واضحتين فى جميع الأفراد حتى الخدم الذين يعنون بأداء أعمالهم أكثر من عنايتهم بمظاهر التعظيم الشديد المبالغ فيه للمخدومين ، لشعورهم بكرامتهم على أنفسهم وعلى وطنهم .

وليس غريبا أن ينمو الشعور الاجتماعى والإحساس بالوطنية فى نفوس الأمريكيين ، والفرص مهيأة لهم على السواء للغنى والسلطة والارتقاء ، ومن العسير أن تصلح هذه البيئة للمذاهب المتطرفة كالشيوعية أو النازية . فما دام الفرد مطمئنا إلى الوصول لكل ما تصبو إليه نفسه من الغنى بالطرق المشروعة فلن يميل إلى الشيوعية . وما دام الفرد معتزا بكرامته الفردية التى يرعاها المجتمع والوطن فلن يجنح إلى النازية .

وهكذا يكون المجتمع الأمريكى واقيا من المذاهب المتطرفة والفساد الاجتماعى ، ومن النقمة الفردية والاجتماعية على السواء .

* * *

(١) من كلمة الأستاذ العقاد بمجلة الراديو المصرى .

أما نحن فى مصر فنعمل دائبين على قتل كل بذور الإحساس الوطنى ، والشعور الاجتماعى .

كل الخيرات فى مصر لفريق دون فريق ، وللفريق القليل الذى لا يزيد على مليون من السعداء، بينما الخمسة عشر مليونا الآخرون محرومون من كل عناية ، لا يكادون يحسون أنهم مواطنون ، أو أن الوطن يشعر بوجودهم أقل شعور ، ونظرة الى الحياة الواقعية أو نظرة إلى أرقام الميزانية تكفى للحكم بأنهم محقون إذا فهموا أن هذا الوطن لا يشعر بوجودهم .

فالفروق بين المدينة والقرية ، وبين الاحياء الخاصة فى المدن وأحياء العمال والطبقات الفقيرة ، لا نظير لها فى بلد من بلاد العالم المتمدين ، وإن كانت لها نظائر فى قصور المهراجات الهنود وأكواخ المنبوذين .

وأرقام الميزانية تتسع وتتضخم لجميع الوزارات ، ثم تضيق وتتضاءل لوزارتى الشؤون الاجتماعية والصحة ، وهما الوزارتان اللتان تعملان لخمسة عشر مليونا من التعساء المحرومين .

وهذه وتلك شاهدتان على مقدار مايعنى الوطن المصرى بالفريق الأعظم من المصريين الفريق المنتج الذى يرفع على كواهله اقتصاديات البلد واجتماعياته ، وتطلب اليه التضحية للذود عن هذا الوطن الكريم .

أما فرص النجاح فى الحياة فهى وقف كذلك على فريق دون فريق . هو الفريق الذى تتوافر له الصحة والعلم والمال ، وليس لأفراد الفريق الآخر أن يتطلعوا إلى شىء من النجاح والتقدم ، لأنهم لا يملكون شيئا من هذه الوسائل . فنفقات التعليم ونفقات الغذاء الواقى من المرض ونفقات العلاج من الداء ، وقوة المال التى تذلل العقبات . كل هذا فى جانب واحد لا يستطيع الجانب الآخر أن يتطلع اليه . والفقر فى مصر يورث الفقر كما أن الغنى يورث الغنى لهذه الأسباب والقيود .

وكذلك الحال فى وظائف الدولة ومناصبها الكبيرة ، فهى جميعا من نصيب المتعلمين وهؤلاء هم الذين يملكون نفقات التعليم ، وهى جميعا من نصيب الأصحاء . وهؤلاء هم الذين يملكون نفقات الغذاء والدواء ، فليس للفريق البائس أمل فى هذه الوظائف والمناصب حتى فى عهد الديمقراطية الجديد .

وضريبة الدم — مع هذا — وقف على فريق دون الآخر ، ولا يزال قانون الالزام بالخدمة العسكرية يتعثر فى الطريق ، ولا يزال البدل النقدى يقبل عن هذا الواجب المقدس ، وبدلا من أن تكون الجندية شرفا كما هى فى كل بلاد العالم ، تصبح ذات معنى غير مرغوب فى مصر لأن الذين يجندون هم الذين يعجزون عن دفع البدل النقدى اليسير !

ونحن نعانى حالة شاذة من فقدان الثقة بين الحاكمين والمحكومين ؛ وهذه الحالة تقتل الشعور الوطنى والإحساس الاجتماعى ، كما تقف حجر عثرة فى نجاح كثير من المشروعات الحكومية التى تقوم بها لمصلحة المحكومين !

فقد مضت قرون وأجيال والشعب يشعر أن الحكام هم جلادو الشعب لاخدامه ، وذلك طيلة الحكم التركى البغيض ، وقد كان الوطن ملكا لهؤلاء الحكام لا للشعب الذى لم يحس إلا أنه النقرة الحلوب ، ومن هنا نشأت العقيدة المتوارثة فى أن الخروج على النظام مفخرة ، وأن الجريمة ضد الحكومة لا رقيب عليها من المجتمع ولا من الضمير !

ومن سوء الحظ أن النهضة العمرانية والإنشائية بعد حكم الأتراك قامت على السخرة ، فلم يشعر الشعب بتغير الحال واختلاف الغايات بين الأتراك وسواهم ، لأن حفر الترع والمصارف ومد السكك الحديدية وإقامة الجسور وسواها من أعمال العمران التى سببت الرخاء الاقتصادى الحاضر قامت جميعا على تسخير الطبقة الفقيرة التى لم تنتفع انتفاعا مباشرا بهذا الرخاء ، فظلت شديدة الشك قليلة الثقة بالهيئة الحاكمة التى تسخرها فى هذه المشروعات بلا أجر أو بأجر زهيد . ولم يفهم هؤلاء البائسون قيمة هذه المنشآت وفائدتها ، ولكنهم فهموا فقط أنهم يعذبون فى سبيلها ذلك العذاب الشديد !

وفى الوقت الذى تتعاون الظروف السيئة جميعها على قتل بذور الوطنية والروح الاجتماعية فى نفوس الجماهير ، لانقوم نحن بأى عمل إيجابى لمقاومة هذه الظروف ، فدراسة التاريخ والتربية الوطنية فى المدارس ، والأغانى التى نسمعها فى كل مكان ، وسواها من وسائل التربية العامة مما يساعد الظروف السيئة ولا يقاومها أية مقاومة .

والعمل الوحيد الذى عمل فى هذا السبيل هو إلغاء السخرة ، وقد كان الأمل قويا فى المراكز الاجتماعية ، التى كانت ستعمل على بث الثقة فى نفوس الفلاحين والعمال بأن الحكومة تعنى بهم وتقصد إلى خيرهم ، وتأخذهم بالاقناع واللين بدل القمع والشدة ، وتتألف بذلك نفوسهم النافرة من كل عمل يأتى من ناحية الحكام ، الذين درجوا قرونا وقرونا على النظر إليهم كأنهم جباة الضرائب وجلادو الشعب ، وأن هذا هو عملهم الوحيد !

كان الأمل قويا فى هذه المراكز أن تبدل هذا الشعور ، ولكن الميزانية لم تسمح وحالت دونها الظروف لسوء الحظ فى عامين متواليين ، ففات ما كنا نرجوه على يديها من التبدل المفيد .

نحن نهمل كل مكونات الاحساس الوطنى والشعور الاجتماعى . فيجب ألا نلوم هذا الشعب فيما يبدو من بعض أفراده من عدم المبالاة بالمصير ، ومن ضعف الوازع الاجتماعى فى نفوس الكثيرين ، فهذه الثمرة المرة نتيجة البذور الخبيثة التى تبذرها الظروف .

ولكن ينبغى أن نحسب حساب اليوم الذى قد نضطر فيه أن ندعو المحرومين المهملين إلى الذود عن هذا الوطن الذى لا يحس بوجودهم ، ولا يعنى بهم . فهذه الدعوة من جانبنا قد تقابل فى حينها باستجابة لا نرضاها .

على أنه ليست الحرب وحدها هى التى تقتضى الذود والدفاع ، فويلات السلم قد تفوق ويلات الحرب فى كثير من الشؤون ، ونحن فى حاجة إلى أن نشعر كل وطنى أنه عزيز على هذا الوطن ، كريم على هذا المجتمع ، فيعزهما ويكرمهما ، ويبذل لهما جهده خالصا ، وعواطفه كاملة ويشعر أن له شخصية وأن له كرامة فيترفع عن كثير مما يدفعه إليه شعوره بالغربة فى وطنه . وعن كثير من العيث بالمرافق العامة ، والنفور من التبعات والواجبات والهرب من التكاليف الوطنية ، فقد بلغ الفرار من الجندية حدا خطيرا لا يليق بالوطنيين .

ولا يجوز أن يخدعنا سكوت هذه الطبقات على ما تعانيه ، فهذا السكوت أولا ليس مضمون البقاء ، وهو فى حالة بقائه خسارة وطنية ، لأنه دليل على أن هؤلاء الآدميين قد فقدوا كل إحساس بحالتهم ، وأنهم فى درجة من الهبوط لا يرضاها مجتمع كريم .

على أن توالى الأزمات قد أفقد هؤلاء الآدميين الاحتمال المشهور عنهم ، لأن لطاقة الاحتمال حدا . ومن الخطأ أن نوازن بين الفلاح اليوم وجده منذ خمسين أو ستين عاما فالرخاء العام يتناقص بتكاثر السكان ودوام الإهمال .

أعطوا المحرومين قبل أن تسألوهم ، فقد أعطوا كثيرا ولم يأخذوا شيئا ، بينما أتخم من الأخذ من لم يعطوا من قبل إلا القليل ما

سيد قطب